ثقافتنا العربية

بقلم محمد عيد

اننا في انطلاقنا القومي المتدفق الان في حاجة الى استلهام ماضينا الثقافي العريق ، هذا الماضي الذي كدنا ننساه بفعل عوامل سياسية واجتماعية كثيرة مرت بنا ، ولكن الذي لا شك فيه اننا وصلنا يوما الى درجة راقية من النضج الثقافي في العلوم التجريبية والانسانية ، واننا كنا قبلة العالم والممثلين للمدنية في الفلسفة والفلك والطب والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والكيمياء وغيرها ، وحتى لو لم نصنع شيئا في تلك السنين الماضية كما يقول المغرضون والاستعماريون، غير النقل والترجمة من حضارة اليونان والسريان والفرس فهذا وحده دليل من ناحية على فاعليتنا وتقبلنا للثقافات القديمة بكل الوانها . ودليل من ناحية ثانية على اننا ادينا دورنا التاريخي في الحضارة والثقافة ببطولة وامانة ، والا فلماذا لم تصنع الامة الرومانية مثلما صنع العرب ؟ .. ولماذا ظل الغرب مدة طويلة يتخبط دون ما وصل اليه العرب !.

ويهمنا من كل ذلك ان نعرف كيف نفيد من هذا التراث الماضي الحامل لسماتنا سواء نقلناه او اخترعناه ، وارى ان نتجه الى تطهير نفوس الكثيرين منا من النظرة القاصرة التي تحتقر هذا التراث اولا ، ثم نبني في نفوسهم حبه واحترامه ثانيا ، ولا شك ان ذلك — يستدعي جهدا كبيرا ليعرف المثقفون مضمون هذا التراث مقدما في صورة جذابة محققة ، ثم لا نقف فقط عند نشره وفهمه ، والا كنا سلبيين لم نصنع شيئا بل يجب ان نفيد من كل ذلك ففي هذا التراث بذور صالحة نطعمها بثمرات العلم الحديث ، وبذلك نكون قد ابدلنا بالشعور السيء الذي ننظر به لثقافتنا شعور اعتزاز وثقة وايمان ، وبدلا من المسخ الذي نعيش فيه نستجدي الاخرين يكون لنا ركيزة — ولو ضئيلة — من ماضينا العظيم .

ولن اخوض في تفصيل تلك الثقافة ولا مقدار تأثيرها في الحضانة الانسانية بوجه عام واوروبا بوجه خاص ولا تطورها نهوضا وهبوطا ، فذلك مما لا يتسع له هذا المقال ونظرتي اليها من زاوية واحدة هي مقدار ما تفيده منها القومية .

ولا بد لثقافتنا من سياج يحمي حريتها ، فمن حق كل انسان ان يفكر وان يعبر ، من حق كل انسان ان يبدي رايه في مشاكل وطنه وفي المقترحات التي يراها نافعة لبلده ، في الاراء التي يعتقدها او يعارضها وليس من حق انسان ان يمنعه غير حريته نفسها ، فهذه الحرية تحتم على صاحبها ان يقف في صف الدفعة القومية يقوى تيارها ، وهذه الحرية نفسها تحتم على كل مفكر ان يبحث عن الحقيقة فقط ، اما اذا حاد عن هذين الامرين بان سخر ثقافته وتفكيره لخدمة اغراض تعارض الروح القومية في الوطن ، او استخدم تفكيره لغير الحقيقة من موضوعات ضارة او شخصية ، فهنا تقف الحرية نفسها لتعارضه وترفض منه مايفعل، وعلى ذلك فحرية التفكير نفسها اذا سارت في طريقها السليم — بدون الزام — استلزمت حصانتها بالضمير الوطني ، واتجهت تلقائيا الى خدمة الروح القومية لوطننا العربي .

ولكن ... الا تعتبر القومية نفسها ثقافة ؟ وهل ادينا حقها كاملا ؟ لقد وضع الرئيس « جمال » لها خطوطا عريضة عملية ، وكتب عنها بعض مفكري العرب ولكن الكثيرين لا يزالون يفهمون القومية بصورتين . فهم غاشم غير مدروس ، مجرد احساس لم يضف اليه الاقناع والصورة الاخرى صورة مضللة زائفة اشاعها الاستعمار وعملاؤه من الحكام في الوطن العربي ، ليضمنوا كسبا رخيصا ، ومن ذلك الزيف ان القومية ضد الدين أو ان القومية تسلط من أقليم من الوطن العربي على اخر للقضاء على استقلاله او ان هناك فرقا بين قومية الافريقيين والاسيويين ، او التفريق بين القومية العربية والقومية العلمانية .. ولا شك ان ذلك يستدعي منا تجنيدا ثقافيا جادا نبين به ماهية القومية ، وما قيمتها بالنسبة لشعبنا العربي . قيمتها منا تجنيدا ثقافيا جادا نبين به ماهية القومية ، وما قيمتها بالنسبة لشعبنا العربي ، قيمتها السياسية والاقتصادية والعسكرية . وكيف انها هي التعبير الناضج عن بيئتنا والضمان الاكيد لعزتنا ... وبذلك نأخذ بيد الواقفين ليسيروا معنا بعد ان يقتنعوا ، ونقضي على التزييف والتضليل بالحقائق ، ونستخدم لذلك كل ما نستطيع من وسائل لنشر تلك الثقافة في الوطن العربي وتدريسها بالمدارس والجامعات ، وبذلك نضع الارضية الصلبة ، اليس هذا جانبا مهما من جوانب الدعامة الثقافية ؟؟ بلى .

وجانب اخر هو المعامل الثقافية الرسمية (معاهد التعليم) ... كما قلت اولا ان القومية احساس ، ثم وعى بهذا الاحساس ، ويمكن ان نضع بذرة هذا الاحساس عند الطفل في البيت ببعض الالوان الثقافية «الخفيفة» كقصص خيالية موجهة او اغان راقصة وذلك بوضع برنامج لهذا النوع من الثقافة ، فاذا ما اتجهنا للمدرسة بعد ذلك تطلبت منا التربية القومية ان نزيد هذا الاحساس عمقا بكل الوان النشاط الثقافي المحبوب والمثير في الوقت نفسه كالاذاعة والصحافة والتمثيل في المدرسة ، وليس معنى ذلك ان نقف عند هذا الحد فان يكن ماذكرت يحقق فعلا احساسا قوميا فان الاعداد الثقافي القومي الذي نتطلبه من معاهدنا العلمية في حاجة الى تخطيط واع ، واني أسهم في ذلك بما يلي ..

فنحن اولا محتاجون الى ربط التعليم بالبيئة الحية البيئة العربية العامة التي يحيا فيها الطالب العربي ، ربطه بتاريخ بلاده وثروات بلاده وحضارة بلاده .. ونحن ثانيا محتاجون الى تعريب الروح التي ما زالت تسيطر على التربية في مدارسنا ، فليس من اليسير على من عاشوا في ظل بعثة معينة ان تتشرب نفوسهم معالم البعث الجديد ولا ان يسمحوا بنمو هذا البعث نموا طبيعيا ... ونحن ثالثا في حاجة الى ان ينزع من رؤوس الاساتذة فكرة العلم النظري التجريدي ، فبعد دخلت العلوم الانسانية نفسها ميدان التجريب ، ولذلك ارى ان نمثل الحياة في المدارس بقدر الامكان ، الحياة العملية الخارجية بصوره مصغرة ، واستغلال الاعمال اليدوية والاشغال استغلالا اكثر جديه ، وفتح مدارس للصناعات والحرف المختلفة فتكون لدينا مثلا مدرسة لزراعي القطن ومدرسة لمربي النحل ومدرسة للاعمال الكهربائية والاحدية الخ .. حتى لا يكون العمل اليدوي الذي نتطلبه الآن بعيدا عن ثقافة ابنائنا .. ومن ناحية رابعة توجه عناية خاصة للغة العربية واثرها في القومية العربية والثقافة الوطنية ، باعداد اساتذتها وتوحيد معاهدهم المتباينة وتخطيط منهج يليق بما لها من اثر قومي عظيم ، وبذلك نربي في ابنائنا بهذه الثقافة الاحساس والقوى التي تحتاجها حياتنا القومية .

والدعاية التي تنهشنا بها اسرائيل من جهة والاستعمار والشيوعية من جهة اخرى نحن في حاجه الى مواجهه ذلك كله بثقافة تربويه شعبيه تحصن نفسية الشعب العربي ازاء هذه الاكاذيب والاضاليل .. وهنا يجب ان يجند لهذه المهمة جهود علماء النفس العرب والاجتماع والتربية كما يصاحب ذلك التوفر على درس صلتنا بالعدو الاول اسرائيل واهم قضايا العالم المتصله بنا الى جانب اوضاعنا السياسية والثقافية والاجتماعية وصلتها بحياتنا من ناحية وما يحيط بنا من ناحية اخرى .. وذلك يستدعي عناية خاصة بالوثائق والاحصاءات والبحوث ليتوفر عليها الباحثون والمثقفون .. وبذلك نقف امام ما يحيطنا مسلحين بسلاحين ثقافيين . الحصانة النفسيه والوعي السليم .

ثم .. ثقافتنا التاريخية ذلك السلاح الذي استخدم ضدنا في الماضي وظل بعيدا عن الروح العلميه ومقتضيات التربية القومية زمنا طويلا لاسباب كثيرة لاتقف بجانبنا على أية حال ، فالواقع ان من درسوا هذا التاريخ العربي ثم قدموه لنا اعتمدوا في ذلك على شيئين .. المراجع الغربية التي عالجت احداث تاريخنا من وجهة نظر ناقصة او مغرضة او المصادر العربية القديمة التي لم تجد من يطورها للان .. ولذلك كانت ثقافتنا التاريخية مزورة او ناقصة لا تحمل حياتنا او طابعنا ... وارى ان نتجه اولا لاحياء ما كتبه المؤرخون العرب عن تاريخنا — فمن المؤسف حقا اننا ندرس التاريخ العربي الوسيط مثلا من وجهة النظر الغربية مع ان المؤرخين العرب قد كتبوا فيه كابن شداد وابن ابي شامه — ومع ذلك ندرس ماكتبه عنا الاجانب لنعرف مناهجهم واغراضهم ونكتب بعد ذلك تاريخنا مسيطرا علينا الشعور القومي ووحدة التاريخ العربي كله وانتخاب الحوادث واختيارها وهذا لايقتضي التزوير أو التشويه — وبذلك نعدل ما افسدته الايام والظروف ، ونقدم ثقافة تاريخية ناضجة تحمل الطابع العربي والعلمي وتذكي الشعور القومي الوطني .

ثم ننظر الى نقطة اخرى هي الثقافة الخلقية والدينية، وقبل كل شيء أسأل هل الدين ثقافة او سلوك ؟ واقرر في غير تردد ان الدين ثقافة وسلوك في الوقت نفسه ولكنها ثقافة تتجه لتغذية ناحية معينة في الانسان هي ناحية الضمير والوجدان كي نحترم كل ما هو نبيل وطيب ونقدس قيم المجتمع الذي نعيش فيه ، القيم العربية المثالية فهل ادت الثقافة الدينية والخلقية عندنا ذلك ؟ ولن اجيب عن ذلك السؤال فالوقائع الحية التي نراها للانحراف هي التي تجيب عن ذلك ... ومن هنا ارى ان يجند للثقافة الخلقية بمعناها السابق الناضجون من رجال الدين وعلماء النفس والتربية والادباء والقصاصون والنوادي الرياضية والثقافية والاجتماعية ، حتى نعيش الدين تجربة حية في نفوسنا وقلوبنا ، فيكون بذلك من اعظم الروافد التي تمد القومية العربية بالسند الروحي النبيل .

وأنبه هنا الى نوع من الثقافة الدينية في وطننا العربي يؤمن معتنقوه بالتوحد تحت ظل الاسلام ، ولهم وسائلهم الثقافية من كتب وجمعيات ودعايات وهؤلاء غير مخطئين ولكنهم معوقون وغير عمليين فمنهجهم يتخطى واقع الامور . ونظرة واحدة لخريطة العالم العربي ، ثم لها مع العالم الاسلامي تبين مدى زيف مايقولون ... فهذه الثقافة اذن يجب ان تتجه الى خدمة الاسلام فقط دون التعرض لتشويهه بمثل هذه الدعاوي الخيالية الكاذبة .

وانبه كذلك الى الاضرار الجسيمة التي تتكبدها من جراء من يروجون لثقافات الحادية ضارة ، لان ذلك نوع من الثقافة الملوثة التي يفهمها السذج والمراهقون فهما خاطئا ، وتشغل وقتنا وجهدنا فيما لا جدوى منه لقوميتنا وبيئتنا ، شأنها شأن الكتب والمجلات التي تعالج بطريقة فاضحة تافهة مسائل الجنس والجريمة والشذوذ .

ونقطة اخيرة في هذا المقال هي التعرف على التيارات الثقافية التي تتنازع مجتمعنا العربي تعرفا سريعا ، وكيف نفيد من كل تيار ... اول تيار ثقافي هو الثقافة الغربية بكل ماتحمله من غنى وابداع ، ومن غير المعقول ان نصم آذاننا ، ونعمي ابصارنا ونضع رؤوسنا في الرمال ولا نفيد من هذه الثقافة ، كلا ... فالثقافة العلمية والنظريات والمناهج كل هذه لا وطن لها نأخذها نحن كما يأخذها غيرنا ولكن نحاول بقدر المستطاع ان نعطيها لونا قوميا وصبغة عربية .. اما الثقافة المنحلة التي تقف ضدنا ، وتجني على شبابنا ومقوماتنا فتلك نحاربها ونمنعها وكفى ماتركته فينا من جروح وضحايا ... والتيار الاخر هو التيار القومي في كل الوان المعرفة العلمية او الادبية او الفنية ، ويجب ان نشجع من يقومون به ، فكل فكرة تعالج مشاكلنا او تبنى حياتنا مصبوغة بروحنا وتقاليدنا هي فكرة طيبة ، لانها تحمل طابعنا وشخصيتنا .. وتيار ثالث هو الثقافة الشعبية المسرح .. والسينما .. والمجلات .. والصحف وكل هذه الوسائل لازالت تحمل الطابع الثقافي والصراع الفكري الذي تدور معركته بين اللونين السابقين في مجتمعنا العربي .. ولكن رسم خطة منظمة لوضع كل هذه الاجهزة الفعالة وتوجيهها لخدمة الروح القومية كفيل بان يحقق لنا كسبا باهرا منها .

محمد عيد
المعيد بجامعة القاهرة